صورة الإسلام في عقلية الألمان.. ذاتية متعصبة وموضوعية علمية

محمد المكتومي

يتحدَّث الكاتب إبراهيم أبو هشهش في مقاله «مدخل إلى الخطاب الجديد حول الإسلام في ألمانيا»، عن رؤية مفكرين ومثقفين ألمان للإسلام ويصنفهم لتيارين رئيسيين؛ التيار الأول: تيار ينظر للإسلام من وجهة نظر ذاتية سطحية نوعا ما بعيدة عن التوثيق العلمي، وتيار موضوعي ينظر بعُمق ويحلل ويستند إلى مراجع علمية بحته للوصول لرؤية بانورامية كاملة إلى حد ما تجاه الإسلام والمسلمين، كما يتحدَّث كذلك عن الرؤية للإسلام على فترات مختلفة تكون أسبابها سياسية بشكل بحت.

وينظر الكاتب للحركة الثقافية الألمانية عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، ويصورها بنفس الحركة الثقافية التي حصلتْ أيام الاحتلال العراقي للكويت، وتزايد الطلب على الكتب الإسلامية ونسخ القرآن الكريم، كما تشير تقارير ألمانية كان كل واحد من كل ثلاثة زبائن يبحثون عن كتب حول الإسلام.. وكان الطلب بشكل أكبر على كتب معروفة مثل: صراع الحضارات لهانتنجتون، ونفس الله لبرنارد لويس وكتاب تعايش الحضارات هارالدموللر الذي يُعد الكتاب المضاد لصراع الحضارات، وبشكل عام كان التزايد بشكل أكبر لكتب بيتر شول-لاتور وجيرهارد كونسلمان أشهر خبيري شؤون الإسلام والشرق الأوسط في الأوساط الألمانية.

لعل ألمانيا لها خصوصية نوعًا ما في مسألة رؤيتها للإسلام، والتي يعود أسبابها -كما يرى الكاتب- للعلاقة الخاصة التي ربطت ألمانيا بالعالم الإسلامي (الدولة العثمانية)، ولحركة التنوير والحركة الرومانتيكية ولطبيعة الاستشراق الألماني الذي نشأ في أروقة الجامعات الألمانية، إضافة إلى وجود الجاليات الإسلامية على أراضيها، والتي تعود إلى ما يزيد على مئة وسبعين عاما، مُشكلة بذلك نسيج ثقافة الأمة الألمانية.

ويُلاحظ جيرتوتروتر أنَّ الصورة التي تقدمها الكتب التاريخ الدراسية في ألمانيا للإسلام تتقلص فقط في ثلاثة أبعاد: حوادث حربية رئيسية حدث فيها احتكاك بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي:

١- معركة بلاط الشهداء، والتي أنقذ فيها كارل مارتل الغرب من التحول للإسلام.

٢- الحملات الصليبية، التي أصبحت الآن لا تمجَّد لدى الألمان باعتبارها بطولات مسيحية، ولكنَّ أثـرَ خسارة القدس وطرد الصليبيين من الشرق الأوسط يقع في نفسية المجتمع الألماني موقعا غير حسن.

٣- وُصول الأتراك المسلمين إلى البلقان وبروز الأمير أويجن؛ باعتباره منقذا جديدا للعالم العربي وللمسيحية؛ لكونه لقَّن الأتراك درسا وجعلهم يعرفون حدودهم في البلقان.

هذه الدروس -والتي تصوِّر الصدام الحاصل بين الغرب والمسلمين- صَوَّرت في العقلية الألمانية أن الإسلام دين السيف والنار، وأنه يبطش بالمسيحيين ويشتتهم، وبشكل عام هو صورة قاسية وشيطانية تهدد الغرب المسيحي على وجه الخصوص، وهذه الصور يجري إحياؤها في الأوساط الإعلامية والسياسية ويستمد منها المثقفون والكتاب ما يثير فزعا من الإسلام.

ثم يتطرَّق الكاتب أبو هشهش إلى اختلاف الرؤية الغربية والألمانية -على وجه الخصوص- للإسلام على فترات مختلفة؛ فيقول الكاتب أنَّ الاهتمام الغربي بالعرب والمسلمين اختفى بشكل لافت للنظر عقب سقوط عكا الحصين الصليبي الأخير في الشرق عام ١٢٩١م، والتصادم الحاصل داخل أوروبا المسيحية نفسها، وما هي إلا فترة وتغيَّرت النظرة للإسلام مرة أخرى في ظل عصر التنوير ونهوض الاستشراق ونظرة مغايرة للإسلام بطريقة إيجابية متسامحة. وعلى رأس هؤلاء «جوته» الذي أعجب بالنبي -صلى الله عليه وسلم- إضافة إلى أشعاره الكثيرة التي دوَّنها في كتاب الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، إضافة إلى إفرايمليسنج الذي كان يدعو للتسامح والتعايش مع الإسلام، والذي برز بشكل كبير في عمله الشهير ناتان الحكيم. ولكن في الوقت ذاته كانت هنالك أعمال أخرى تصوِّر العقلية الغربية بالتفوق المسيحي على التخلف الشرقي كأعمال كارل ماي التي كانت -وإلى الآن- تلقى رواجا عالية في الأوساط الألمانية، خصوصا أعماله القصصية للأطفال التي تتوارث لأجيال متعاقبة.

وزادت الصورة النمطية بعدائية الإسلام كذلك في الفترة التي ارتبطتْ باستقلال دول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وحصولها على تسليح قوي من الغرب، والذي أشعر المجتمعات الغربية بوجود تهديد إسلامي شرقي مرة أخرى، إضافة إلى هجرة الكثير من الأتراك والعرب، وطلبهم للجوء السياسي واختلاطهم بالمجتمع الألماني، مما جعل الألمان ينظرون لهم بعدائية، وعلى أنهم ذوو تقاليد غريبة مغايرة للمجتمع الغربي.

ويقول الكاتب إنَّ النقاش والجدل حول الإسلام ارتفع بشكل حاد بعد عام ١٩٩٠ ويصور المشهد الثقافي على اتجاهين مختلفين:

× الأول: اتجاه جامعي أكاديمي بحت ظل مخلصا إلى حد كبير لتقاليد الاستشراق التقليدية الموضوعية بشكل كبير والمستندة إلى منهجية علمية، وإن كان هذا الاتجاه لا يتسم بالموسوعية التي امتاز بها المستشرقون الألمان المشهورون، ولكن هذا الاتجاه بدأ يميل إلى المناهج الأنثربولوجية والسيوسيولوجية ومناهج الأدب والسياسة، بعد أن كان الاستشراق التقليدي يركز على جوهر المناهج اللغوية والتاريخية، هذا الاتجاه الذي يمثله عدد من الأساتذة وتلامذتهم في أقسام الدراسات الإسلامية وباحثون يمثلون جيلا جديدا من المستشرقين، ولكن للأسف هذا الاتجاه يقف محصورا في الجامعات بعيدا عن المجتمع والإعلام الألماني.

× الثاني: اتجاه أكثر خطرا وانتشارا على الجمهور الألماني، والذي يُمثله صحفيون وكتاب وإعلاميون وهو استشراق إعلامي صحفي غير أكاديمي كما يقول الكاتب، ويقدم هؤلاء على الإعلام والصحف الإعلامية على أنهم خبراء في شؤون الشرق الأوسط، وكلمة خبير لها وقع قوي، وكما يقول إدوارد سعيد فإنها توحي بشخص يتعامل بمهارة مطلقة مع مادة معماة شديدة الغموض. يصوِّر هؤلاء الإسلام للجمهور على أنه ذو طابع سكوني لا يتطور غير قابل للتعددية والديمقراطية.

ومن أبرز من يُمثل هذا الاتجاه: بيتر رومان شول، وهو صحفي ومراسل تليفزيوني له مؤلفات عديدة يتربع على الساحة الثقافية الألمانية، ويصور في مؤلفاته الإسلام بأنه دين مسلح وخطر يتربص بالغرب، ويصفه بأنه ذو ثقافة لا تتأثر إطلاقا بالعلاقات الاجتماعية وغير قابل للتطور. ويستغرب الكاتب إبراهيم منه في مقاله إذ إنه -يقصد شول- دائما ما يثني على مسلمي ألمانيا ويصفهم بأنهم رفيعو التهذيب وهم بشر مسالمون.

وردًا على هذا التناقض، أقول بأن السياسية الألمانية قائمة أساسا على محاولة لدمج الأقليات في الثقافة الألمانية، وتعزيز الانتماء للأمة الألمانية؛ وبالتالي فإنَّه من الصعوبة أن يخرج شول عن ذلك، ويشكل صراعا داخليا في الأوساط المجتمعية الألمانية.. وفي سؤال وُجِّه له حول ماذا يجب عليه أن يكون الرد بعد أحداث ١١ أيلول، أجاب بإجابة تدل على ذاتية وعدم موضوعية في رؤيته للإسلام وتعصبه للمسيحية، فكان رده: يجب أن تكون هنالك قنبلة نووية أوروبية، وينبغي أن نرد الإرهاب بإرهاب مضاد.

ولقد أثار تقديم شول وكونسلمان على أنَّهم خبراء في الشؤون الشرق أوسطية حفيظة الكثير من الأكاديميين، وأبرزهم البروفيسور بيتر هالم الذي فنَّد أطروحات هؤلاء الصحفيين، وقدَّم الإسلام على أنه متعدِّد ليس بتلك الصورة الهزيلة والسوداوية التي قدموها.

ولكن -وللأسف- هذه الأطروحات الأكاديمية التي تصور الإسلام بصورة موضوعية تبقى في أروقة الجامعات وفي أوساط والمثقفين، وتظهر الشخصيات الإعلامية التي دائما ما تكون بعيدة عن الموضوعية وأقرب للذاتية في رؤيتها للإسلام محط أنظار شريحة أكبر من المجتمع الألماني.

وأخيرا.. وُفق الكاتب إبراهيم في تحليله للخطاب الإسلامي الجديد في ألمانيا بتحليل عميق جدا؛ ينبي عن فكر ناقد وتحليلي للمشهد الثقافي الألماني خصوصا، والغربي عموما، ولكن في رأيي أن المجتمع الألماني مجتمع قارئ ومتعلم أكثر من غيره من المجتمعات الأوروبية المجاورة له، ولا نستطيع أن نقول بأن غالب المجتمع الألماني يتأثر بالإعلام بالدرجة الأولى في رؤيته للإسلام والمسلمين.

Mohd22king@hotmail.com